الفصل السادس

المعجـــــزة

. . [بل جَزَى الله الإسلامَ عني خيراً] ! !

نحن الآن أمام رجل جديد ، مُغايِرٍ تماماً لهذا الذى كنا معه عَبْرَ الصفحات السالفة من الكتاب . .

فكيف ظهر هذا الرجل فجأة . . ؟ !

كيف بَزغ على نحوٍ مُباغِتٍ ، ومن أين جاء . . ؟ ؟

• أكان القدَر يصنعه على عينيه . ليقدم به مُحيًا باهراً للفضيلة والخير ، فى دنيا كادت تُجدب من الفضيلة والخير . . ؟

• أكان روح الإسلام يعمل فى مُثابرة غير منظورة ؛ ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررَة ورجاله الشاهقين المعجِزين ، ما حَسِب الناس أن زمانهم ولَّى ودرس . . ؟

• أكان الضمير الإنسانى قد أقلقه غياب القدوة الصالحة ، وإجداب الوجدان البشرى منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظُهورَها وتَجلِّيها ، وليُذكِّر الطموح البشرى بطريق القداسة . . ؟

• أكانت الحقيقة قد سَئِمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة ، تعمل

وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كى تملأ الفراغ الموحِش ، وتروى برهبانيتها الناشطة وبتبتُّلِها النبيل عقلَ الحياة . . ؟

* أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نموًّا غير منظور ، وتحتشد فى تركيزٍ هائل ، لِتفجِّر فى ميقات معلومٍ طاقتها الجبارة . . ؟

ألا إن ذلك كلَّه قد كان . .

وبهذا كله ، ومن أجل هذا كله ، جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد ، والزائر الجليل — عُمر الخليفة — فى رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! ! !

* * *

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحداً من عامة الناس . .

ولو أن البيئة التى قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات . .

ولو أن الزمن الذى استغرقه انقلابه الروحى المذهل ، امتدَّ على طريقِ تطورٍ طويل أو حتى قصير . .

ولو أن السبب المباشر لهذا الانقلاب كان شيئاً آخر غير المنصب الذى يُشعِل الطموح ويَفتح الشهيَّات.

لو أن ذلك كان كذلك ، لَتيسَّر لنا تصور الإعجاز الذى حدث . .

أمَا والأمر مختلف عن هذا كله ، فإن ذلك الإعجاز يبقى — وإلى الأبد — سرًّا جليلا يتحدَّى كل إدراك . . !

* فبطل الانقلاب الروحى الذى سنطالع الآن صورته الخارقة ، لم يكن من أوساط الناس فى معيشته ورزقه ؛ فيُقال : إن زهده وورعه

كانا امتداداً لمعاناةِ تجاربه . . بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك ؛ وحفيد المجد ، وابن القصور الناعمة ، والمباهج الهاطلة . . ! !

• وهو لم يكن حين تَسَنَّم الخلافة شيخاً تقدمت به السن ، فيُقال : إن استغناءه عن نفوذها وجاهها ونعيمها إنما هو مظهر لحياة شبعت من النعيم والجاه حتى بَشِمَتْ . وأعراض شيخوخه وَلَّى عنها ولَعُ الشباب وطموحه . . بل إن البطل والقِدِّيس كان يوم استخلافه فى رائعة الرجولة والاقتدار والطموح . . لقد كان فى الخامسة والثلاثين من عمره . . ! !

• وهو لم يستغرق فى انقلابه الروحى الهائل والمفاجىء سنين ولا شهوراً ، بل جاء كما سنرى ابن اللحظة التى اختير فيها أميراً للمؤمنين . . ! !

• ولم يكن وراء هذا الانقلاب الروحى يأس من غاية أرهقَتْ طموحه . ولا هزيمة فى الحياة راح يلتمِس عِوضاً عنها وبديلا لها ، ولا ردُّ فعل لإفراط قديم فى شهوات النفس ، ولذاذات الجسد ، ولا نوبة صلاح وتُقىً دفعت به إلى صوامع العابدين ، ولا نزعة تشاؤم ترى العدَمَ وراء الأشياء ، فتلوذ باللاَّمُبالاة ، صائحة : الكُلُّ باطل . .

بل كان وراء انقلابه الروحى شىء هو أبعد ما يكون عن النتائج التى أفضى إليها . . أجلْ ، كان هناك منصب الخلافة « وصَوْلجان الملك لأَعظمِ ، وأقوى ، وأوسع امبراطوريات عصرها وزمانها . . ! ! !

وفى هذا – قبل أى اعتبار آخر – تتراءى قدَاسَةُ هذا الانقلاب المفاجىء الجليل ، وتتمثل المعجزة كلها . . ! !

• • •

ونحن نصف هذا الانقلاب ، بالمفاجىء ، لأنه كان كذلك فعلا

فمع أن حياة – عمر – كانت منذ طفولته طاهرة فاضلة نَزَّاعة إلى المزيد من الصلاح والتقى . .

ومع أنه بعد عزله عن ولاية الشام أيام الوليد بن عبد الملك عكَف على تنمية فضائله وتزكية نفسه ، وشرع يُخفف من غُلَواء تأنُّقه وتَنعُّمه . . فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما لا شيء من هذا كله بقادر على إقناعنا بأنه كان مقدمة لذلك الانقلاب الفذّ الذى تفوّق حتى على ذاته ، والذى تقمَّص شخصية الخليفة فى اللحظة التى جرى فيها رِيقُه بالمَذاق الرهيب - لا الرَّطيب - لمسئولية الحكم والخلافة . . ! !

* * *

لا ريب فى أن اصطفاء الله وتوفيقَه ، يقفان قبل كل سبب ودافع وراء المعجزة . .

فالله سبحانه على كل شىء قدير . . وهو – سبحانه – أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم حيث يضع سِرَّه وبَركته . .

لكنْ إذا ذهبنا نلتمس للمعجزة سبباً ودافعاً مما يدخل فى حَوْزَتنا ويُشكّل حياتنا ، كبشر مختارين ، ومسئولين . . نُفكِّر ، ونُقدِّر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدفع يا تُرى . . ؟ إنه – فى رأينا – مستقر فى معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزيز فى فهم « مسئولية الحكم » ، وإحساسه بها ، وتقديسه لها . .

فكل شىء داخِل شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير فى إنجاز خاطف تحت ضغط هذه المسئولية وحدها . . ! !

و « هو » الآن . . ليس « هو » الذى كان . . ! !

والدولة ، والأمة ، والحياة كلها . تجاوز أوضاعها السابقة فى مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقَداسته . .

ثم إن ارتباط هذه المسئولية فى ضميره بالله ارتباطاً وثيقاً ومُباشِراً يدعوه أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير . .

فهو لا يصبر يوماً ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن الله سائله لماذا ترك هذا الخطأ ساعةً من نهار ؟ ولأنه لا يضمن لنفسه الحياة إلى الساعة التالية . .

ومن ثَمّ فلا وقت للإرجاء . . ! !

والآن ، فلننظر ! ! . . .

* * *

ها هو ذا يعود من دَفن سلَفِه « سليمان بن عبد الملك » فلا يكاد يستقر به المقام فى مجلس العزاء حتى يطلب إلى مولاه « مُزاحِم » أن يسارع إليه بقرطاس ، وقلم ، ودواة . .

ويقترب منه « رجاء بن حَيْوة » وقد رأى جسده ينتفض ، كأنّ به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد ، حتى يستريح . .

لكنه يجيبه ، ودموعه تَتْثالُ من مآقيه :

« لقد فَعلْتَها يا رجاء . . .

. . فَدعْنى أَسْتَنْقِذُ نفسى من عذاب يوم عظيم ؟ ! !

إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله فى نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال . .

أجل . . إنها هى ، لن تَدعَه ينعم ، ولن تتركه ينام . . ! !

ويجىء « مُزاحم » بالقرطاس ، وبالقلم ، وبالدواة . . ويختطفها الخليفة

منه فى لهفة من يختطف حياته ومصيره من فُوَّهة إعصار . . ويروح يكتب على عجل :

* إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية . .

* وإلى أسامة التنوخى . يخبره بعزله عن خَراج مصر ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

* وإلى يزيد بن أبى مسلم ، يخبره بعزله عن أفريقيا ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

وأمر أن تُحمل الكتب فوراً إلى أصحابها . .

وبُهت الأمراء الأمويون لما رأوا . وتهامس بعضهم معلقاً على هذا المشهد الذى أثار عجبهم وحَنَقهم معاً ، فقال :

[إنه الولَع بالسلطان ، لا يَدعُه يصبر حتى الصباح] ! !

مساكين . . ! ! فقد كانوا أعجز من أن يبصروا رُوح القَداسة التى بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذى لم يجد فى منصب الخلافة الذى يتكالبون عليه سوى رُزْء رهيب . . ! !

وإن عجلته الحازمة فى البدء بهذا الثالوث ، لتكشف لنا طَرَفاً من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم . ومنهجه فى تحمل هذه المسئولية . . .

* فأما « مسلمة بن عبد الملك » فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية . . وكاد الحصار يُؤتى أكله ويفتح أبواب العاصمة ، لولا خدعة ورطه فيها القائد الرومانى « اليون » فردّت القوةَ عجزاً ، والنصر هزيمة . . وعلى الرغم من ضياع الفرصة ، وانقطاع خطوط التموين وتفشّى المرض والمجاعة فى الجيش ، فإن الخليفة السابق « سليمان بن عبد الملك » رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة ،

ربما تحت وطأة كبريائه الشخصي والقومي ؛ وربما أملا فى تحسُّن ظروفه وإمداده بقوات جديدة – وهكذا تُرك الجيش المتداعى فريسة للضياع . .

ولقد كان – عمر بن عبد العزيز – قبل استخلافه يتَميَّز غيظاً من هذا الموقف ، ويُلح على الخليفة باستدعائه . ولكن لَا رأى لمن لا يُطاع . .

والآن ، وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يطيق صبراً ، ولا يُرجىء أمر الانسحاب إلى الصباح . بل يبدأ بإصداره وبإرسال الرّسُل به فى أولى ساعات خلافته ومسئوليته – هذه الأولى . .

* فأما الثانية ، وهى عزل أُسامة التنوخى عن خراج مصر ؛ فقد كان أسامة هذا – كما يصفه ابن عبد الحكم – [غاشماً ، ظلوماً ، مسرفاً فى العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدى ؛ ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه ؛ ثم يطرحها للتماسيح] ! ! !

أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طَرْفة عين . . ؟ ؟

لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عزله . .

والآن وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يَدَعُه فى مقامه لحظة ، فقد يَبْتُر فى هذه اللحظة يداً تجى يوم القيامة مُعلّقةً فى عُنق « عمر » – تقول : يارب : لقد قُطِعتُ بغياً وعُدواناً فى عهد هذا الخليفة . . ! !

* وأما الثالثة ، وهى عزل « يزيد بن أبى مسلم » عن أفريقية ، فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً ، يعامل الناس بوحشية مسعورة ويتسلَّى برؤيتهم وهم يُعذَّبون ويذوقون نكالَه . . .

* * *

هكذا بدأ الخليفة عهده . . بالتغيير السريع الحاسم العميم الذى

يجب أن يتم على مستوى الدولة والأمة بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الانقلاب الروحى داخل وجدانه وضميره .

لا مجال للتلكؤ ولا للإرجاء أمام عزيمة الرجل الذى صارت عيناه لا تكُفّان عن البكاء ، والذى لم يعد لسانه يَلهج بغير هذه الآية المُنذِرَة :

« إنى أخاف إنْ عَصيْتُ ربى عذَابَ يوم عظيم » ! !

وعصيان ربه – فى تقديره – يتمثل فى إرجاء التغيير ، بالقدر نفسه الذى يتمثل به فى إهمال التغيير . .

وكأنه كان يدرك بحاسَّته السادسة ، ببصيرته المضيئة ، أن حياته على جناح طائر ، وأنه لن يلبث بين الناس إلا قليلا ثم يلبى نداء ربه ، فراح يملأ اللحظة العابرة بجهاد أعوامٍ ثِقال . . ! !

* * *

والآن ، لِننظر مرة أخرى ! !

ها هو ذا فى اليوم التالى ، يتهيأ آخذاً طريقه إلى السرادق الذى جرت العادة بإقامته حيث يجرى فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه . .

ولايكاد يضع قدميه على الطريق ، حتى يرى موكباً فخماً من الجياد المطهَّمة ، تتوسطها فرس زيِّنت كالعروس ، ليمتطى الخليفة ظهرها الباذخ . .

وفجأة تأخذه الرَّجْفة ، ويسأل مستنكراً :

– ماهذه ؟ ؟

فيجيبونه :

– هذه جياد لم تُركب قط ، تُعَدُّ لموكب كل خليفة جديد فينادى عمر :

– يامُزاحِم . . ضُمَّ هذه إلى بيت المال ! !

ويمضى على قدميه حتى يبلغ السرادق فإذا هو فِتنة ولا كإيوان كسرى . . فتعاوده الرَّجفة ، ويسأل :

– ماهذا . . ؟ ؟

فيجيبونه :

– إنه السرادق الذى يُعَد لاستقبال الخليفة الجديد فينادى :

– يامُزاحِم . . ضُمَّ هذا إلى بيت المال ! !

ويدعو بحصير فيفرشه على الأرض ثم يجلس فوقه فى غبطةِ قِدّيس ! ! ثم يُجاء بالأردية المزركشة ، والطَّيْلسَانات الفاخرَة ، فيسأل :

– وماهذه ؟ ؟

فيقولون :

– إنها ثياب الخِلافة ، يتحلَّى بها كل خليفة جديد . . فينادى :

– يامُزاحم . . وهذه أيضاً ضُمها إلى بيت المال ! !

ثم تُعرَض عليه الجوارى ، ليختار منهن وَصيفاتِ قصره . . وهُنا ينهض فَزِعاً . ويقبِل عليهن واحدة واحدة :

– من أَنتِ . . ؟ ولمن كُنتِ . . ؟ ومابلدك . . ؟ ؟

حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعاً ، نادى :

« يامُزاحم . . تولَّ أمرهن جميعاً ، وأَرْجعْ كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها . . ! !

ألا فلندَّخر الكثير من عجبنا ، ودَهَشِنا ، وانبهارنا ، فإننا مقبلون على عالَمٍ آهلٍ وحافل بمثل تلك المعجزات . . ! !

* * *

بعد قليل ، ينتقل أمير المؤمنين إلى « دمشق » عاصمة الخلافة الأموية .

ومن « دمشق » حيناً . . ومن « خُناصِرة » أحياناً سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التى أصبح مسئولاً عنها – والمعجزات التى ستشهدها أيامه المباركات ؛ سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما فى إخبات شديد :

أولهما : الولاء المطلق للدين . .

ثانيهما : الولاء المطلق للأمة . .

يُدَثِّر هذا الولاء وذاك ، خوفٌ بالغ من الله ، يكاد تتصدّع من مثله الجبال ! !

• فأما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيماً . كان يرى فيه مَفاءة نعمتِه وفِردوس حياته . .

يقول له بعض إخوانه ، وقد بهرهم عهده العظيم :

– جزاك الله عن الإسلام خيراً . .

فإذا هو يجيب :

« بل جَزى الله الإسلام عنى خيراً » . . ! !

ولقد زاده إيماناً بعظمة دينه ، تلك التطبيقات الباهرة التى كَشفت مقدرته فى بناء الدولة العادلة ، والأمة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله . وعلى رأسهم أبو بكر الصديق . . والفاروق عمر . .

ولقد قضى عمره منذ طفولته ملتزماً أوامر الدين وحدُوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع وحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفِّذ . والمسئول عن

ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع . .

« وأما ولاؤه للأمة ، فهو فى الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصَى أول ما استوصى بالإنسان . .

والإسلام خاصة يعطى أكثر اهتماماته لقضية الإنسان . . ! !

على أن الظروف التى وَلِىَ فيها « ابن عبدالعزيز » الخلافة ، كانت تعطى ولاءه لحقوق النَّاس وَقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التى خلفتها العهود الأموية السالفة .

لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وفلسفتها ، وراح يحَملها فى مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق . .

الإرهاق لنفسه ، حتى لايكاد يعطيها فرصة للتنفُّس . .

والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها . . ! !

وإذا كانت الشهور التسعة والعشرون التى عاشها خليفة تُعتبر بالنسبة للتاريخ الإنسانى كله بمثابة لحظة . . فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم أزمان التاريخ تزكيةً للإنسان وتأثيراً فى الحقيقة إذ أعطت البشرية فى شتى عصورها وأديانها وأجناسها ، المثل على ماتستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة ، وتصنع من إعجاز ، إذا جعلت الله رقيبًا ، والحقَّ كِتابَها . . ! !

* * *

لقد حرص « أمير المؤمنين » على أن يُدرك الناسُ أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم . فكل ذلك فى قرآنهم ودينهم وتراث الرَّعيل الأول

الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان . .

إنما هو يأتيهم بروح جديدة ، هى روح المسئولية الورعة الصادقة ، يُزكِّيها فهم سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته .

وإذن . فإن علينا أن نَرصُد مَسار علاقته بمسئولياته فى ثلاثة مطالع :

المطلع الأول – وضوح المسئولية فى وعيه . .

المطلع الثانى – استغراقه فيها . .

المطلع الثالث – إخلاصه لها . .

* فأما عن الأول ، فنحن نعلم أنه لكى تستغرق قضية ما إنساناً مَا ؛ استغراقَ إيمان لااستغراق بحث ، فإنها لابد أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار فى تفكير صاحبها وشعوره المدى الذى يقهر كل غموض ، ويتخطى كل تساؤل . .

والقضية التى استغرقت – عمر بن عبد العزيز – كانت من هذا الطراز – فهى لاتستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها . بل استغراق مؤمن مفعم باليقين . . ! !

فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه . . وإذا كانت كلماته وخطبه إنما تعبر تعبيراً مطلقاً عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده ، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح . .

ولنبدأ معه بهذه الخطبة :

« . . لقد سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بَعده سُنَناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله . ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمرٍ خالَفها . .

« من اهتدى بها ؛ فهو المهتد . .

« ومن استنصر بها ، فهو المنصور . .
« ومن تركها واتبع غيرَ سبيل المؤمنين وَلأّه الله ماتولىَّ ، وأصْلاهُ جهنم وساءت مصيراً . .
« أيها الناس . .
إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب . .
« فما أَحلَّ الله على لسان نبيه ، فهو حلال إلى يوم القيامة . .
وما حَرَّم الله على لسان نبيه ، فهو حرام إلى يوم القيامة . .
ألا وإنى لَسْتُ بقاض ، وإنما أنا مُنفِّذ . .
« ولست بمبتدع ؛ إنما أنا مُتَّبع . .
« ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، غير أنى أثقلكم حملاً » . . ! ! !

* * *

هكذا تتضح المسئولية فى رُوعه غاية الوضوح . .
فموضوعها — هذا الدين الذى أتمَّ الله به النعمة وارتضاه للناس ديناً .
وحاملُها — ليس مُشرِّعا ، ولا قاضياً . . إنما هو مُنفذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه .
وهذا الوضع لا يمنحه أى امتياز [لست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم] .
والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمته هو أنه « أثقلهم حِملاً » — وهو كما نرى ، محسوب عليه . . وليس محسوباً له . .
بل إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لايقف منهم

موقف المعلم ولا الواعظ . بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويَضرعُ إلينا كى نُصدِّقه . . هو الذى بلغ أرفع مستويات التقى والعظمة والهدى والكمال . .

هاهو ذا يستقبل الناس خطيباً فيقول بكلمات يخنقها النحيب والبكاء :

« . . وأيْمُ الله . إنى لأقول لكم هذه المقالَة . وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندى . فأستغفر الله وأتوب إليه » . . ! ! ! !

ووضوح مسئوليته كأمين على دين الله . هو نفس وضوحها كأمين على عباد الله . .

تروى زوجته « فاطمة بنت عبدالملك » هذه الواقعة :

« دخلت عليه يوماً ، وهو جالس فى مُصَلاَّه ، واضعاً خدَّه على يده ، ودموعه تسيل . .

« فقلت له : ما بالُك ، وفيم بكاؤك . . ؟ ؟

« فقال وَيْحك يافاطمة . . إنى قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت . ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذى العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم يومئذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألا تثبت لى حجة ؛ فلذلك أبكى » . .

هذا وضوح مسئوليته عن الأمة كلها والناس جميعاً ، وكما قال :

[فِي أقطار الأرض وأطراف البلاد] .

إن قلبه الورع الذكى الكبير ، مع كل فرد من أمته .

مع كل يتيم ، وكل شيخ ، وكل أرملة . .

مع كل فقير ، وكل مريض ، وكل مجهود . .

مع كل مظلوم ، وكل أسير ، وكل مَقهور . .

كل هؤلاء وأولئك قابعون فى ضميره ، يُجلجلون بحاجاتهم ، ويَجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه – كما يتصوَّر – ليخاصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غداً ، إلا ما يبذله لهم اليوم من حق ، وعدل ، وخير ، وبِرّ ! !

من هذه الصورة السريعة لوضوح مسئوليته فى عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه فى هذه المسئولية وفناءه فيها . .

لقد احتوته المسئولية فى خِضَمِّها ، فَنسِيَ نفسه ، وأهلَه ، ودنياه ، وعالَه . . نسى كل شىء سواها . ! !

بل نسى حقه فى استشعار الرضا والأمن جزاء ما يُقدم لدين الله ودنيا الناس من ولاء وبِر . . حتى حقه هذا ، نسيه فى غمرة خوفه المشبوب من الله ! !

لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، وبدت له أعماله الشامخات كأنها ليست شيئاً مذكوراً . . وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة – تلك هى صورة موقفه بين يدى الله سبحانه ، يسأله عن كل شعيرة من دينه ، وعن كل فرد من عباده . . ! !

تقول « فاطمة » زوجته :

« لقد كان يذكُر الله فى فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من

شدة الخوف ، حتى أقول : لَيُصْبِحنَّ الناس ولا خليفة لهم » ! !

ويقول « على بن زيد » :

« كان يبدو ، وكأنّ النار لم تُخلق إلاّ له » ! !

ويقول « ميمون بن مهران » :

« رأيتُه مرةً يبكى ؛ فإذا هو يبكى دماً » ! !

إن « المضمون الإلهى » للمسئولية دفَع استغراقه إلى أقصى قِيعانِ المسئولية وأبعادها . .

لقد أصبح يستحيِ من ربه أن يرى فى فمه لقمة شَهِيَّة . . أو أن يرى على جسده ثوباً ناعماً . . بل أن تُرى على شفتيه ضحكة – مجرد ضحكة . . !

فمنذ ولى الخلافة إلى أن يلتى ربه ، لن يرى ضاحكاً . .

والرجل الذى كان قبل الخلافة بدقائق متأنقاً ، متألقاً ، فَوَّاح العبير ، قد جعلته المسئولية فى لمح البصر إنساناً آخر ، أشْعَث ، أغْبر . . .

تماماً مثل جَدّه العظيم « عمر بن الخطاب » ، لو لقيه من لا يعرفه من الناس . لسأله : = أين أجد أمير المؤمنين . . ؟ ؟ ! !

لقد رفض رفضاً مطلقاً كل أطايب الحياة ومناعمها ، ولاذ بتقشُّف بعيد ، وشَظف شديد . .

إن الرجفة الكبرى التى نجمَتْ عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول ، إلى مَدارِ جديد . محوره سؤال الله له عن كل حق للدين ، وللدولة ، وللأمة . .

إنه يعبد الله كثيراً . . ولكن « المعبود » لا « العبادة » هو مناط مخاوفه واهتماماته . .

والآن وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالله لم يعد يكفى

فيها أن تكون علاقة « عابد » بـ « معبوده » . . بل قبل ذلك يجب أن تكون علاقة « مسئول » بـ « مُسْتَخْلِفه » . . ! !

تقول زوجته « فاطمة » وقد سُئلت عن عبادته :

« والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً

ولكنى والله ، مارأيت أحداً أخوف لله منه » . . ! !

أجل . . لوكانت مخاوفُه هذه مخاوف « عابد » يخشى التقصير فى عبادته ، لوجدَتْ تلك المخاوف مَرفأها سريعاً ، لكنها ، مخاوف « مسئول » يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا . . على الناس ، والزرع ، والأنعام . .

وهكذا كان استغراقه فى مسئوليته ، واستغراقها إياه ، حقيقة تتحدى كل وصف ، وتفوق كل مُبالَغة . .

* * *

وإنا لَنشهد صوَر هذا الاستغراق تتوالى على جميع مستويات حياته — خليفة ، وزوجاً ، وأباً ، وأخاً ، وقريباً ، وصديقاً . . ! !

فجميع علاقاته بنفسه ، وبعشيرته ، وبالناس أجمعين ، غائصة معه فى أعماق استغراقه البعيدة . بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه مما جعل قرابته وصداقته تتحوَّل إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء . .

ولقد عبّر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير ، خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب بِرْذَوْنَه ، فسأله :

« كيف حال الناس . . ؟ ؟

فأجابه :

« كل الناس فى راحة ، إلا أنت ، وأنا ، وهذا البِرْذَوْن . . ! ! » ! !

ولقد انعكس استغراقه فى مسئولياته على نفسه ، وعلى أهله ، وعلى كل الذين حوله انعكاساً مجيداً .

فأما هو ، فكما رأينا ، حلَّ فى إهابه إنسان آخر عجيب . .

هذا « محمد بن كعب القُرَظى » يتحدث ، فلْنُصْغ إليه :

« دخلتُ على « عمر بن عبد العزيز » بعد استخلافه ، وقد نحل جسمه ، وعَفَا شعره ، وتغير لونه – وكان عهدنا به فى المدينة وهو أمير عليها . حسن الجسم ممتلئ البَضْعَة . .

« فجعلت أنظر إليه ، لا أصرف بصرى عنه . .

« فقال لى : يابن كعب . مالك تنظر إلىَّ نظراً ما كنتَ تنظره إلىّ من قبل . . ؟

« فقلت : لِعجَبى ، يا أمير المؤمنين . . ! !

قال : ومِمّ عجَبُك . . ؟

قلت : ممَّا نَحِل من جسمك . ونَفا من شعرك وتغير من لونك . .

« أين ذاك اللون النضير . . والشعر الحسن . . والبدن الريّان . . ؟ ! !

« فقال لى : إنك إذن لأشَدُّ عجباً من أمرى ، وإنكاراً لى ، لـو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى ، وقد وقعتْ عيناى على وَجْنَتَىَّ ، وسكن الدود مِنخَرى وفمى » . . ! ! !

ثم راح يبكى . . ويبكى ! !

لقد تغيرت الصورة والإطار . . وذوَى الجسد الفارِهُ الذى غذّاه النعيم تحت مَطارق الإحساس الرهيب بالمسئولية . . ! !

وإنه لَيدعو إليه فى الأيام الأولى لخلافته ، زوجته « فاطمة » ويواجهها بحقيقته الجديدة . . ويخبرها فى رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم تعد هناك لحظة فى وقته يهبها لغير تلك الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقها الكامل فى اختيار مستقبلها ومصيرها ! !

و« فاطمة » هذه ستظل مُتألقةفى وعينا طوال هذه الصفحات التى نسطرها عن زوجها الخليفة ، وسنظل نُزجِى لها من التحية والإجلال ماهى له أهل – أىّ أهل . . ! !

فلقد ظلت بجوار زوجها « القِدِّيس » تشاركه التقشّف القاسى الذى فرضه على نفسه . . ولم تكن تزيد حين تُقرقِر أمعاؤها من الجوع ، وترتعد أوصالها من الصقيع ، على أن تقول :

« ياليت كان بيننا وبين الخلافة بُعْدَ المشرِقَين . .

« فوالله ، ما رأينا سُروراً مُذ دخلَتْ علينا » . . ! ! !

لقد أخذها معه إلى قِيعان مسئوليته واستغراقه . . وأضحت السيدةُ التى كانت زوجةَ خليفة . . وبنتَ خليفة . . وأختَ خليفة . . والمتقلّبة فى أبهى ماكانت الدنيا تعرف يومئذ من حرير ولؤلؤوذهب ونعيم . . أضْحَتْ لاتملك إلا ثوبين خَشِنين . . فقد حمل الخليفة كل حُلَله وحُللها وحُلل أبنائه وبناته وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها فى بيت مال المسلمين . . وأضحت لا تأكل ـ أكثر ما تأكل ـ إلا الخبز الجاف مُبلّلاً بالزيت ، أو مَثْروداً بالعدس . . وأضحت صاحبةَ الوجه الشاحب ، والجسد الضامر الوَهْنان . . ! ! !

دخل عليها – أمير المؤمنين – يوماً ، وهى تَخِيط ثوبها بيديها فَربَّتَ على كتفها مداعباً ، وقال :

« يافاطمة . .

« لَنَحْنُ ليالى دَابِق ، أنعمُ منا اليوم » ! !

مشيراً بهذا إلى حياتهم المنعمة قبل الخلافة فى « مَرْج دابق »

فأجابته قائلة :

« والله ما كنتَ على ذلك – يومئذ – أقدرَ منك اليوم » ! !

تعنى أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى ، أقدرُ على التزوّد من النعيم ، منه قبل ذلك . .

وفجأة ، يمتقع لونه ، وتنثال دموعه ، ويُدرك أنه جاوز بهذه الدُّعابة حدَّه ، فيقول :

« يافاطمة . .

« إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذابَ يوم عظيم » ! !

ولم تلبث « فاطمة » إلا قليلاً حتى أَلِفَتْ شظَف الحياة التى اختارها « عمر » لنفسه ولذويه . . وحتى راحت تحياها بروحٍ مُحِبَّة متفانية . .

لقد مَسَّتْها بركات زوجها القديس ، فراحت تكتشف النعيم الكامِن ، فى الشظف الماثِل . . وتستشرف من وراء دنيانا الفانية فِردوس الله الأعلى ، ورضوانه العظيم . . ! !

* * *

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته . . وبهذا الاستغراق العظيم فيها ، يستكمل الولاء زواياه بالإخلاص المطلق الذى يربطه بهذه المسئولية أوثق رباط . .

والإخلاص للمسئولية – أية مسئولية – يُشكِّل السياج المنيع الذى يحفظها داخل موضوعيتها ، ويصونها من تَقحُّم الأنانية والهوى عليها . .

وهذا ، هو جوهر الإخلاص لَدى أمير المؤمنين « عمر بن عبدالعزيز » . .

فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجداً شخصيًّا ، أو مغنماً ذاتيًّا . . بل استغراق فانٍ فيها ، مُتَبتِّل لها . ليس بين يديه ، ولا من خَلفه ، ولا عن يمينه ، ولا عن شماله شىء يلهيه عنها أو يغريه بها . .

إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين .

ورجل كعمر حين يخلص لله ، فلا تستطيع ألف دنيا كدنيانا أن تدخل فى هذه الصفقة نِدًّا ، أو شريكاً . . ! !

لقد كان – رضى الله عنه وأرضاه – دائم الترديد لهذه الآية الكريمة :

« ومَا يُؤْمِنُ أكثرهُم بالله إلاَّ وهُم مشركون »

واتخذ منها نذيراً يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون . وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شرك متنكر وخفى . من نوع ذلك الشرك الذى حذَّر الرسول أصحابه منه ، مُخبراً أن له دبيباً كدبيب النَّمل . .

لقد نجح « القديِّس » نجاحاً باهراً فى صَوْن إخلاصه من دبيب النمل هذا . . وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض :

[هذا أول خليفة أموى لانجد حاجة فى قَرْع أبوابه ،
فإن مايكون لنا من حق يأتينا ونحن فى دُورِنا . .
وما ليس لنا بحق ، فَدُونَ بُلوغِه قَطْعُ الرقاب . . ! !]

أجلْ . . لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز . . مُزاحم ولامنافس

لامن قرابة ، ولا مِن صداقة .

يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بنى أمية حول حقوق يَرَوْنها لأنفسهم . ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بصَكّ الوليد . .

وفى كلمات حازمة ، يقول عمر .

« أبِالمصحف ستجئ » . . ؟؟!!

لقد صار الحق وحده هو الفيصل والحكَم . . فلا صُكوك ولا مَواثيق إلا صكوك الحق ومواثيقه . . ولا رَحِم ولا قرابة إلا رَحِم الحق وقرابته . .

ولا يحول بينه وبين الحق شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة . .

* * *

كانت عمته « أم عمرو » بنت مروان ، صاحبة دَالَّةٍ على خلفاء بنى مروان وأمرائهم . . وكانت أثيرة لدى – عمر بن عبد العزيز – وموضع حبه العميق ، واحترامه الوثيق .

وحين ألغى كل مخصصات بنى مروان ، ألغى مخصصاتها أيضاً فسارعَت إليه . . وفوجئت به جالساً يتناول طعام عشائه .

وسلّمت « العمّة » ثم جلست ، وراحت تُحَمْلِق بعينيها لاتكاد تصدق ماتراه . .

لقد كان كل مابين يديه من طعام ، خبز جاف ، وطبق عدس وملح !!

ودارتْ بها الأرض . . ! !

أهذا هو « عمر » الذى كان يخوض فى النعيم خوضاً ؟ ؟

آلآن – وهو الخليفة المطاع – يصير هذا طعامه . . ؟ !

ولم تتمالك نفسها . فأجهشت بالبكاء ، ثم قالت :

« لقد جئتك فى حاجة لى . . ولكنى لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسى » . . ! !

قال الخليفة :

« وما ذاك ، ياعَمّة » . . ؟ ؟

قالت : « لو اتخذتَ لك طعاماً أَلْيَنَ من هذا » . . ؟ ؟

قال : « لا أملك غيره ياعمّة ، ولو كان عندى لفعلت » . .

قالت : « إن عمك « عبد الملك » كان يُجرى علىَّ ماتعلم . . ثم كان أخوك « الوليد » فزادنى . . ثم كان « سليمان فزادنى . . ثم وليت أنت فقطعته عنى » . .

فأجابها : « ياعمّة : إن عمى – عبدالملك – وأخى – الوليد – وأخى – سليمان – كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذلك المال لى فأعطيكَه ، ولكنى أعطيك مالى إن شئتِ . .

قالت : « وما مالُك ، ياأمير المؤمنين . . ؟

قال : « عطائى . . مائتا دينار فى العام . .

قالت : « وما يبلغ منى عَطاؤك » . . ؟ ؟ ! !

ثم انصرفت عنه يائسة ، بائسة ، و هى التى كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويُسارِعون إلى هواها . . . ! !

أبقِيَتْ هناك شفاعة لشافع . . أومطمع لطامع . . ؟ !

لا . . فنى وَقْدة إخلاصه احترقَتْ كل الأطماع . وإن هذا الإخلاص لَيحيطه بسياج ترتدّ عنه كل المحاولات عاجزة مُفلِسة . .

كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسى لايخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف . .

قال له بعض أصفيائه ، حين جرّد الأمراء الأمويين من كل ثرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال :

[يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غَوائل قومك] . . ؟ ؟

فإذا الحليم الأوّاب ، الهادئ السَّمْت ، الباكى العين ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير :

« أبيوم سوى يوم القيامة تُخوفوننى . . . ؟ ؟

« فكل خوف أتّقيه دون يوم القيامة لا وُقيتُه » ! !

حقًّا . إن الفضيلة مَثوبة نفسها . . وحين يُخلص امرُؤ للحق مثل هذا الإخلاص الذى نراه ، فإن إخلاصهُ يبوء عليه ما لا يبوءمِعشارَه ذكاء ، أو جهد ، أو حُظوظ ! !

إن العقبات التى كانت تتشامَخ أمام « عمر » لِتصده عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة واقتدار . .

فأمراء البيت المالك . . والطبقة العريضة التى أنجبها الحكم الأموى ، وأَصبحت أسيرة مصالحها ونفوذها . . والفساد الذى كان ناشراً سلطانه . . والاقتصاد المتردِّى . . والأزمات الطاحنة . . ثم علاقاته بأهله و بأصدقائه . .

كل ذلك ومِثْلُهُ معه ذاب تحت أنفاس إخلاصه الحار المتألق . . ! !

* * *

وإذا كان إخلاصه هذا يبهرنا بمقدرته الفائقة على اكتساح السدود ،

فإنه لَيبهرنا قبل ذلك بمفهومه الذى كان له فى وعى « عمر » وضميره . .

فهو بكل مواهبه وكفاياته لايرى لنفسه الحق فى أن يحمل مسئولياته بذكائه . . بل عليه أن يحملها ويُنجزها بالإخلاص وحده

إنه يَبرأ إلى الله من حوله ومن قوته . . وإنه فى ضياء إخلاصه العامر لَيهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله ، ومن رأيه إلى توفيق الله . . ! !

لهذا كان دعاؤه الدائم :

« اللهم رَضِّنى بقضائك . وبارك لى فى قَدَرك ؛ حتى لا أُحبّ تعجيلَ ما أخَّرت ، ولا تأخير ما عجَّلت » ! !

إنه يعلم أن الإخلاص حين يحتوى قُوَى الذكاء الإنسانى ويَصهرها فى بَوْتَقِته ، فإنه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافاً كثيرة . وبَدلاً من أن يُشتته الهوى والغرض ، تُؤلِّفه وحدة العمل والاتجاه . . هذه الوحدة ، التى يُفيئها الإخلاص ويُزجيها . .

* * *

وكما تُوَلِّد الكهرباء الحركة وتُفجِّرها ؛ فإن الإخلاص لمسئولية الحكم قد فجَّر وولَّد حركة حياة ابن عبدالعزيز . . هذه الحركة التى لم تكن سوى : القَداسَة . .

والقَداسَة ، هى الحاصل النهائى لفضائل الروح مُجتمعة ومتألقة فى ذِروة تجلِّيها وظهورها . .

هنالك تكون القَداسة ، ويكون القدِّيس . .

ولقد أفاءت المسئولية على – عمر – التوفيق الذى سما بفضائل روحه

من ورع وزهد وطهر ونُسُك إلى أعلى مستوياتها ، ومن ثَمَّ كانت المسئولية سبباً مباشراً لظفره بالقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد . . .

فلو أنه كان قديساً من قبل ، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقَداسته ، فبقى وفيًّا لها مُثابراً عليها . . . ؟ ؟

لكن الذى حدث أن منصب الخلافة الذى يُغرى بكل شىء إلا بالقداسة ، هو الذى كان ، وكانت مسئولياته الجِسام ، مِرقاةَ رُوحه الطاهرة العظيمة توقَّلَته فى لمح البصر إلى فردوس القداسة ، ومكانة القدِّيس . . ! !

* * *

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلاً ، وتبهرنا كثيراً . .

أما العبارة فهاهى ذى :

[« . . ثم بويع « عمر بن عبد العزيز » .
فقعد للناس على الأرض » . . ! !]

إن هذه العبارة الموجزة تفتح بصائرنا على قوة « القداسَة » التى أنعم الله بها على عبده الصالح « عمر بن العزيز » . .

إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة ؛ لتنشىء أوضاعها الخاصة ، وعلاقاتها المخلصة . .

فما من بأس فى أن يجلس الخليفة مجلساً فيه من روعة المظهر أو بَهائه ما يحفظ وقار المنصب .

أجَلْ ، ليس هناك بأس . .

و« عمر » يعلم هذا بفقهه وسعة أُفقه . .

بيد أنه من اللحظة التى طوَّقته فيها المسئولية ، لم تكن تحركه روح

الخليفة . . بل روح القدّيس . . ! !

والقداسة – دائماً – تضع الوسيلة فى مستوى الغاية ، فلا يعنيها بلوغ الغاية إلا بالقدر الذى يَعنيها فيه نوع الوسيلة . .

ثم إن لها وسائلها ومنطقها . .

إنها تتعامل مع جوهر الأشياء ، لامع الأشياء نفسها . . ولمّا كان جوهر السلطة فى نظر القداسة ، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلى الخليفة أمرهم ، ويحمل مسئولية مصايرهم ، فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم ، وليسوا هم الذين بين يديه . .

والشكل الذى رآه « عمر » ملائماً للتعبير عن هذه الحقيقة . هو جلوسه للناس على الأرض . . ! !

أجل . . ليس مجرد الجلوس على الأرض ، الأمر الذى كان يعنيه . إنما هى الحقيقة المجيدة التى يمثلها هذا الجلوس . . حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها . . ! !

وإذن فلتأخذ من ناحية الشكل أقصىَ مظاهر الخضوع ، كما ستأخذ من ناحية المضمون أقصى مظاهر الالتزام . . ! !

ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لايفصله عن ترابها سوى حصير متواضع . .

قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ماللسلطة من بَذْخ واستعلاء ، ولينزلها عن عرشها الصَّلِف وكبريائها الزائفة ، إلى أرض البساطة ، والتواضع ، والمرحمَة . . ! !

* * *

والقداسة التى تمتع بها ابن عبدالعزيز ، قداسةُ رجل أراه الله مَناسِكَه . . فهو يرى بنورٍ من ربه ، ويُطل من جميع النوافذ دون أن تحتبسه صومعة ، أو يعطل رؤيته تَزَمُّت وانطواء . .

إنها قداسة تبهرنا بما تنطوى عليه من فطنة وحِذق ومضاء . فهل يتصور أحد أن قديساً كهذا القديس لا يكفّ عن العبادة والنُّسُك ، يُطلب إليه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :

« إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد جائعة ، فإنها أولى به من الكعبة » . . ! !

هل يُتصور حدوث ذلك ، مِن عابد ، ناسك ، قدِّيس ؟ ؟

لكنها القَداسَة الذكيّة التى تُحَدِّق دائماً فى الجوهر ، وتضع على همسِهِ العميق سمعَها ، وتتتبَّع مَواقع الحق ، كما يتتبع الطير مواقع النَّدَى . . !

إن هذا الناسك الأوَّاب ، لَيُذكَر له يوماً نبأ واعظ يدعو الناس إلى طاعات لايأتيها ، فإذا القديس يُعلِّق على هذا بقوله :

« لو أن كل امرىءٍ لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يُلزِم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولانهى عن المنكر . . ولَقَلَّ الواعظون والسَّاعون لله بالنصيحة » . . ! !

إنها قداسة ذكية نفَّاذة . . .

قَداسَةُ رجل كان يدعو ربه دائماً فيقول :

« اللهم انفعنى بعقلى » . . ! ! !

* * *

وهى قَداسَة أتيح لها أن تُحدِث تغييراً من أعدل وأنبل ماشهدت

دنيا الناس من تغيير . . ! !

قداسة جاءت الحياة ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُّقى ، والعدل ، والرحمة ، ما كان الناس يحسبون أن الدنيا فَرغَتْ منه إلى الأبد . .

قداسة لم تكد تجلس للناس على الأرض] حتى أنبتت الأرض عدلاً ورحمة . . وأمطرت السماء عدلاً ورحمة . . ورعى الذئب مع الشاة ، فى تآخ وسلام . . ! ! !

ولقد أنجز القديس كل هذا التغيير الهائل الذى بدا وكأنه تغيير فى كيمياء الزمن ، وكيمياء الحياة . . أنجزه بمنهج لا ندرى أنقول ! إنه بالغ اليُسر . . أم نقول : إنه بالغ الصعوبة . .

أم أن اليُسر والصعوبة يتراجعان بعيداً ، ليفسحا المكان لوصف آخر أحق منهما وأولى . . ؟ ؟

أجَل . . إن ذلك لكذلك . .

فلنقل إذن : إنه منهج بالغ الإعجاز . . . ! !